

محتويات المحاضرة

الأدب المغربي والأندلسي بين التقليد والتجديد

التقليد والاحتذاء في
المديح السياسي

«غرض المدح» بين
التقليد والتجديد

مفهوم التقليد
والتجديد عموما

التجديد والتمايز في
المدائح النبوية

أهداف المحاضرة:

نحدد الأهداف الأساسية لهذه المحاضرة، في:

- التعرف على بنيات «التقليد والتجديد» من حيث المفهوم والاشتغال.
- تحديد بعض مظاهر «التقليد والاحتذاء» في الأدب المغربي والأندلسي، من خلال عرض المدح عموماً وفي المديح السياسي خصوصاً.
- الوقوف عند بعض مظاهر «التجديد والتميز» على مستوى المدائح النبوية وخصوصاً المولديات.

مفهوم التقليد

- في اللغة القُلد: جمع الماء في الشيء، وكلُّ ما لُوي على شيء فقد قُلد، والقِلد: الرفقة من القوم والجماعة منهم... فمن المعاني التي يتعاورها المعنى اللغوي لمفهوم "التقليد" المحافظة على الشيء، وما يحيط بأي شيء، والسير مع القوم والجماعة منهم وعدم مفارقتهم.
- وفي الاصطلاح، التقليد عموماً عند ابن علي الجرجاني في التعريفات: هو "اتباع الإنسان غيره فيما يقول أو يفعل... كأن هذا المتبع جعل قول الغير أو فعله قلادة في عنقه»
- وفي الأدب يشمل التقليد محاكاة كلِّ ما تواضع عليه الأدباء قديماً. ففي التقليد محافظة واحتذاء، وفي الشعر هو تمسك بأغراض القصيد وأبنيته الفنية النمطية، وتوجيهات النقاد العرب القدماء والنزول عند آرائهم.

مفهوم التجديد

□ في اللغة "رجل جديد: إذا كان ذا حظ من الرزق... والجدة: نقيض البلى، والجديد: ما لا عهد لك به، والجد: الاجتهاد في الأمور". فمعاني الجديد في اللغة تتراوح بين الحظ الكبير، والقطع، والاجتهاد، والشئ المستجد.

□ أما في الاصطلاح فهو "إتيان بما ليس شائعا أو مألوفا». والتجديد موجود في كل زمان ومكان، وهو ليس فقط تغييرا في الأشكال والخصائص الظاهرة، بل هو موقف من الفن والحياة والوجود، والشعر طبعا في سياقنا...

□ وفي ضوء هذه التحديدات سنتناول نزوع الشعر المغربي والأندلسي لتقليد الشعر العربي عموما والتماثل معه، وسعي الشعراء للتجديد والتميز في بنيات إبداعية مختلفة...

غرض المدح بين التقليد والتجديد

تعريف المدح

□ المدح - اسم يدل على وصف محاسن بكلام جميل، وهو مرتبط بالثناء والإكبار والاحترام، وموجه إلى مستقبل خاص. "فكاهة أو مكافأة عن يد لا يستطيع أداء حقها إلا بالشكر. إعظاما لها" (العمدة، ابن رشيق، 1/809)، أو طلبا للعطاء وانتظارا للجزاء، في إطار التكسب بالشعر.

□ ويكاد المدح يستوعب باقي الأغراض الأخرى، حتى إن هناك من يعتبره أصلا لها، فالغزل بنية رئيسة في مقدمات قصائده، والهجاء سلب صفات المدح عن المهجوع، والفخر مدح الذات والثناء عليها، والوصف حاضر في كل مقاطع القصيد، بينما الرثاء هو مدح لهالك...

التقليد والاحتذاء في المديح السياسي

وقد انتشر هذا الغرض انتشارا واسعا في البيئة المغربية والأندلسية، وخصوصا مديح ذوي السلطان والنفوذ. (المديح السياسي أو المديح السلطاني)، مما اقتضى فيه الشعراء كثيرا آثار من سبقوهم من الشعراء واستحضروا شروط من قبلهم منم النقاد.

فقد اشتهرت وصية أبي تمام للبحتري، كما وضع ابن قتيبة في الشعر والشعراء خطة محددة لمعمارية القصيدة المدحية. فضلا عن أن قدامة بن جعفر وضع أصولا أربعة للمدح. حصرها في العقل والشجاعة والعدل والعفة، ثم فرّع عنها الأقسام المشكلة لها.

وقد حذا شعراء المغرب والأندلس حذو الشعراء العرب في هذه البنيات النمطية الرائجة في الشعر العربي، إلى جانب نزوعهم – على نطاق محدود – إلى طرق بنيات جديدة استدعتها الظروف التي عاشوها والأحداث الجسم التي تفاعلوا معها.

فلا بن حَبُوس يمدح عبد المؤمن:

ألا أيُّ هذا البحر جاورك البحرُ *** وخيم في أرجائك النفع والضُّرُّ

وسال عليك البرُّ خيلاً كما تُها *** إذا حاولت غزواً فقد وجب النصر

حيث المدح بالصفات. النمطية. المعروفة في الشعر العربي، وخصوصاً الكرم والعقل والحكمة والشجاعة، مع التركيز على "الغزو". اعتباراً لمكانة المغرب والأندلس في جوار النصارى، والحروب الدائمة بينهما.

وهو الأمر ذاته الذي نراه يحضر بقوة في شعر الأندلسيين، فهذا ابن هاني يسبغ على ممدوحه مجموعة من الصفات، يقول:

جود كأنه اليمّ فيه نُفَاةٌ *** وكأنما الدنيا عليه غُثَاءُ

ملكٌ إذا نطقتُ علاه بمدحه *** خرّسَ الوفود وأفحم الخطباء

للناس إجماع على تفضيله *** حتى استوى اللؤماء والكرماء

واللكنُ والفصحاءُ والبعداءُ والقُرباءُ والخصماءُ والشهداءُ

----- حيث المبالغة في المدح بالكرم والعطاء، وتفضيل الممدوح من طرف سائر الخلق.

□ وعموما، فشعراء المغرب والأندلس كانوا يقتفون آثار من قبلهم من الشعراء، ويتمثلون توجهات النقاد في رسم صورة متكاملة للممدوح، تجعله النموذج القادر على الانتصار الأعداء (قيمة الشجاعة)، والعاقل الذي يسوس الخلق بحكمة ورؤية (قيمة العقل)، مع التأسيس لقيمة العدل الذي يخترق الآفاق (قيمة العدل)، وهي صفات دائرة في الشعر العربي راسخة في بنياته النمطية.

□ أما التجديد فيصرف إلى البنيات الصغرى، المتأثرة بالسياقات الثقافية المنبثقة عن الموقع الجغرافي للمغرب والأندلس، والذي يجعلهما في مواجهة مستمرة مع النصارى، وعن الصراعات التي اشتدت بين الإمارات في مراحل مختلفة، وعن الثقافة الفقهية والعلمية المتمكنة.

□ ففي خلاصة هذا العنصر فقد ارتبط غرض المدح، بالقصيدة المادحة في الشعر العربي، وبنياتها النمطية الأساسية، فأخذ منها توجهاتها واختياراتها الفنية الكبرى، وأثناء تشغيلها من طرف الشعراء جاءت مصبوغة ببعض خصوصيات البيئة المغربية والأندلسية، إلا أن مدى هذه الخصوصيات كان محدودا جدا في مديح السلاطين والأمراء.

المدائح النبوية نموذجا للتجديد:

□ كان الإبداع في مدح الرسول □ في الغرب الإسلامي أكثر نشاطا، وكان الشعراء "أكثر اهتماما بهذه الظاهرة"، واستدل الباحثون على هذا. السبق بقصيدة "الشقراطيسية في مدح خير البرية" لأبي عبد الله الشقراطيسي (466 هـ)، وقصيدة "معراج المناقب ومنهاج الحسب الثاقب" لأبي عبد الله بن أبي الخصال (540 هـ) وغيرهما.

□ وقد شهدت هذه الظاهرة تطورا كبيرا في المغرب والأندلس، لمجموعة من الأسباب:

• مكانة الرسول (ص) في النفوس، والتعلق به ومحبته، والتسلي بذكر شمائله.

• بُعد المغاربة والأندلسيين عن المزارات في مكة والمدينة.

• الشوق والحنين إلى تلك المنازل.

• دور الاتجاه الفقهي للمرابطين والموحدين، والشرف الذي قامت عليه الدولتان السعدية والعلوية.

• اتساع ظاهرة الاحتفال بالمولد النبوي الشريف منذ الفترة المرينية.

• الهجومات المتواصلة على الأندلس، وحدودها الشمالية.

□ ومن الشعراء الذين برعوا في المديح النبوي واستحدثوا فيه فنونا شتى، لسان الدين بن الخطيب:

النارُ في كبدِي والشوق يُقلِقني *** والقُرب ينشُرني، والبُعد يطويني

وَرُكْن صَبْرِي تَخَلَّى في الرِغَامِ وَقَدْ *** تَمَكَّنَ الحُبُّ مِنِّي أَيَّ تَمَكِّنِ

وقد رأيت مسيري عزَّ مطلبه *** والطَّرْفُ والطَّرْفُ يُبَكِّينِي وَيَكْوِينِي

"محمد" المصطفى المُختار مَنْ ظَهَرَتْ *** آيَاتُهُ فَتَسَلَّى كُلُّ مَحْزُونِ

فيُظهِرُ الشاعِرُ شوقه إلى الديار الحجازية، كما لا يتردد في إظهار مدى حبه للمقام الشريف ومبلغ تعلقه به. فلم يجد غير البكاء بديلا لما يعيشه من شوق، لما استحالت عليه الرحلة وامتنع عليه الرحيل. فيجد البديل في التسلي بذكر الرسول صلى الله عليه وسلم وذكر صفاته الكريمة وشمائله وأخلاقه.

□ أما الشاعر المغربي محمد بن محمد المرابط الدلائي:

هو أحمدٌ ومحمدٌ والمرتجى *** في الحشر إن هال البرايا الموقفُ
وزعيمُ كلِّ المرسلين إذا همُ *** عند الشفاعة في النُّشورِ توقَّفوا

وفي تأثر واضح بالفكر الصوفي المنتشر في البيئة المغربية، ولدى الشاعر، وهو ابن الزاوية الدلائية، يصف الرسول صلى الله عليه وسلم بالرفأة والرحمة بالخلق. وتميز الرسول ص عن باقي الأنبياء، بما خصه الله به من الشفاعة المنجية من الموقف المهول، الملحقة بنعيم الجنة.

□ بعد تفكيك النصوص والبنيات الصغرى المكونة للقصائد. نلفي:

□ إن هناك أبعادا مستجدة ومستحدثة لصفات الكرم والشجاعة والعقل والحكمة والنور.

□ التأثر الواضح بالتصوف الإسلامي المميز للبيئة الثقافية المغربية والأندلسية.

□ التوظيف الواسع في هذا النوع من القصائد للسيرة النبوية.

□ التأثر بالبيئة العلمية المغرقة في الثقافة الفقهية، وبالبعد الجغرافي الذي يدفع إلى الحنين والبكاء والتوسل.

□ كل هذا جعل المدائح النبوية ذات أبعاد عاطفية وأخلاقية وتاريخية وعلمية. وهو ما سيُتَّوَجَّع بالقصائد التي عرفت بالمولديات، والتي شهدت انتشارها الواسع في العصر السعودي وما بعده.

المولديات

□ هي قصائد في المديح النبوي، تجمع بين مدح الرسول صلى الله عليه وسلم، ومدح السلطان، وغالبا ما تلقى بين يدي الممدوح، بمناسبة المولد النبوي الشريف. فهي فنيا تجمع شخصا مختلفا، وترتبط بزمان ومكان محددين. وهي قصائد تُميز الأدب في الغرب الإسلامي عن غيره.

□ فقد كانت "المولديات" إذن نتاجا لواقع سياسي واجتماعي وثقافي متميز، ارتبط أساسا بظاهرة الاحتفال بالمولد النبوي الشريف، وبالتعلق بالرسول ص، وهي ظاهرة يستفيد منها السياسيون والشعراء...

□ حيث يسعى الشاعر إلى أن يرسم للممدوح صورة نموذجية للخليفة المجاهد في نشر الدين والعدل والأمن في المجتمع في زمن الأزمات والحروب، وصد حملات النصارى، باعتباره امتدادا للرسول صلى الله عليه وسلم في الواقع كما هو امتداد له في القصيد.

بناء المولديات

- الغزل وإظهار الشوق والمحبة	- المقدمة النسبية	- المكون الأول
- الطلل وذكر الأماكن الحجازية		
- الرحلة والراحة		
- الشيب والشباب وشكوى الدهر		
- الصفات البدنية	- مدح الرسول صلى الله عليه وسلم	- المكون الثاني
- الصفات النفسية		
- الصفات البدنية	- مدح السلطان	- المكون الثالث
- الصفات النفسية		
- التصليات	- الاختتام	- المكون الرابع
- البطولة الشعرية (افتخار الشاعر بشعره)		
- الدعاء		

وقد عُرفت هذه الظاهرة منذ العصر-المريني، لكنها شهدت انتشارا واسعا في-العصر السعدي وخصوصا على عهد-المنصور-الذهبي، في-الشعر-الفصيح-كما في-الملحون. وقد اشتهر في هذا المجال مولديات:

العصر المريني: ابن عبد المنان ولسان الدين ابن الخطيب السلماي.

العصر السعدي: عبد العزيز الفشتالي، وعلي بن-منصور الشَيْظمي ومحمد بن-علي الهوزالي.

العصر العلوي: محمد المرابط الدلائي، ومحمد ابن زاكور، وحمدون بن الحاج، وسليمان الحوات.

□ ونمثل في هذا -السياق بمولدية -شاعر-المنصور -الذهبي -ومؤرخ -الدولة -السعدية -عبد -العزیز الفشتالي، الذي نظم قصيدة مولدية من ستة وتسعين بيتا، افتتحها بإظهار لوعة الشوق وعمق المحبة:

هُم سَلْبُونِي الصَّبْرَ وَالصَّبْرُ مِنْ شَانِي *** وَهُمْ حَرَمُوا مِنْ لَذَّةِ الْغَمْضِ أَجْفَانِي
وَهُمْ أَخَفَرُوا فِي مُهْجَتِي ذِمَمَ الْهَوَى *** فَلَمْ يَتْنِهِمْ عَنْ سَفْكِهَا حُبِّي الْجَانِي

□ ثم ينتقل بعد ذلك إلى الحديث عن الرحلة والراحلة، وذكر الأماكن الحجازية التي أضحت بديلا عن البكاء عن الأطلال في القصيدة المادحة:

قِفِ الْعَيْسَ وَاسْأَلْ رَبِّعَهُمْ أَيَّةَ مَضْوَا *** أَلِلْجِرْعِ سَارُوا مُدْلِجِينَ أُمَّ الْبَانِ

□ ليتخلص بعد ذلك إلى مدح الرسول صلى الله عليه وسلم بذكر صفاته الأخلاقية الكريمة، ومعجزاته العظيمة، بما يشبه ملحمة مطولة:

وَعَرَّسَ فِيهَا لِلنُّبُوَّةِ مَوَكِبٌ *** هُوَ الْبَحْرُ طَامٍ فَوْقَ هَضْبٍ وَغَيْطَانِ
مُحَمَّدُ خَيْرُ الْعَالَمِينَ بِأَسْرَهَا *** وَسَيِّدُ أَهْلِ الْأَرْضِ مِنَ الْإِنْسِ وَالْجَانِ

□ وبعد أن يفقد الشاعر الأمل في لقاء الرسول صلى الله عليه وسلم وزيارة مراسمه يتعلق بحفيده السلطان المنصور الذهبي الذي يقول القصيدة بين يديه، ويستفيد من فضله وكرمه:

إِذَا نَدَّ عَن زُورِكَ الْبَاسُ وَالْعَنَا*** فَجُودُ ابْنِكَ الْمَنْصُورِ أَحْمَدَ أَغْنَانِي

مُتَوَجُّجُ أَمْلاكَ الزَّمَانِ وَإِنْ سَطَا*** أَحَلَّ سَيْوِفًا فِي مَعَاقِدِ تِيْجَانِ

□ وبعد -المبالغة- في مدح -الإمام- المنصور -يختم- بالدعاء -والفخر- بقصيدته -والذي- سمي -بمقطع- "البطولة الشعرية":

أَتَتِكَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ كَأَنَّهَا*** لَطَائِمُ مِسْكِ أَوْ خَمَائِلُ بُسْتَانِ

وَلَا زِلْتَ بِالنَّصْرِ الْعَزِيزِ مُؤَزَّرًا*** تُقَادُ لَكَ الْأَمْلاكَ فِي زِيِّ عُبْدَانِ

وخلاصة القول؛ فإذا كان التقليد مرادفا للمحافظة والاحتذاء، وإذا كان التجديد مرادفا للاجتهاد والإتيان بالجديد؛ فإنهما يظهران معا بوضوح في "غرض المدح" في شعر المغاربة والأندلسيين بأنماطه المختلفة. فقد استجاب المديح السياسي لبنية التقليد والاحتذاء أكثر من غيره، فاعتمد الشعراء على البنيات النمطية التي رسخها الشعراء والنقاد المشاركة قبلهم. بينما برز التجديد والاجتهاد في قصيدة المديح النبوي عموما، وفي المولديات خصوصا، من خلال إضفاء أبعاد ثقافية وعاطفية وأخلاقية وتاريخية على القصيدة النبوية. وعبر الجمع بين الممدوح الديني والممدوح الدنيوي في القصيدة المولدية، مما تميز فيه المغاربة والأندلسيون وأبدعوا خلاله على نطاق واسع

جدا.

تعريف الرثاء

- الرثاء بكاء الميت والتفجع عليه وإظهار الأسى والكآبة لفراقه،
- وسبيله "أن يكون ظاهر التفجع، بين الحسرة، مخلوطا بالتلفف والأسى والاستعظام"
- الرثاء باعتباره غرضاً مستقلاً في الشعر العربي
- الرثاء لا فائدة ترتجى منه للشاعر إلا الوفاء ومشاركة أهل المرثي أحزانهم.
- في المغرب استطاع الشعراء الإبداع في هذا الغرض...

أسباب نشاط الرثاء

- ▶ طبيعة الظروف السياسية المتقلبة والارتجاجات التي عرفتها بلاد المغرب،
- ▶ طبيعة الظروف الاجتماعية...
- ▶ حنين الشاعر المغربي إلى المشرق العربي وارتباطه به، لأنه امتدادٌ روحي ومعرفي.
- ▶ ارتباط الشاعر المغربي بالأماكن والمدن والزوايا، وتفاعله شعريا مع الأحداث المختلفة التي تتعرض لها.
- ▶ العلاقة الوطيدة بين الشعراء من جهة والفقهاء والكتاب والأمراء والملوك والسلطين من جهة أخرى....
- ▶ تميز المغاربة بالنزوع الأخلاقي، حيث إن الشاعر غالبا يكون عالما وفقهيا، مما يجعل "الموت" موضوعا أساسيا لتفكيره،
- ▶ هذا النزوع الأخلاقي يقوي مشاعر الوفاء للإخوان والأهل والعلماء والشيوخ، وهو الأصل في غرض الرثاء...

رثاء الأشخاص

➤ ويشتمل هذا النوع من الرثاء على رثاء السلاطين والأمراء ورجال الدولة، ورثاء النفس، ورثاء الأهل، ورثاء العلماء والشيخوخ والإخوان...

➤ وفي رثاء النفس عُرفت قصيدة عبد يغوث لنفسه قبل موته، ومطلعها:

ألا لا تلوماني كفى اللومَ ما بيا *** وما لكما في اللوم خيرٌ ولا ليا

➤ وقصيدة مالك بن الريب في رثاء نفسه، ومطلعها:

ألا ليت شعري هل أبيتنَّ ليلةً *** بجنب الغضَى أزجي القلاصَ النواجيا

➤ ولم تبتعد مرثيات المغاربة والأندلسيين عن هذه الروح، التي كانت دائرة في الشعر العربي عموماً، حيث تتردد بنيات الندب، والتأنيب، والعزاء... وتنتشر عبارات التفجع والحسرة، والتأسف والاستعظام، وذكر عفة المرثي وشجاعته وعقله وكرمه، ثم الدعوة إلى الصبر والتصبير.

وللشيخ أبي عليّ اليوسفي يرثي زَاوِيَةَ الدَّلَاءِ لَمَّا أَوْقَعَ بِهَا

السلطان مولاي رشيد العلوي سنة ١٠٧٨ :

أَكَلَّفُ جَفْنَ الْعَيْنِ أَنْ يَنْثُرَ الدَّرَا فَيَأْبَى وَيَعْتَاضُ الْعَقِيقَ بِهَا حَمْرًا
وَأَسْأَلُهُ أَنْ يَكْتُمَ الْوَجْدَ سَاعَةً فَيُنْفِشِي وَإِنَّ اللُّومَ آوَنَةً أَغْرَى
وَقَدْ كُنْتُ أَسْتَصْحِيهِ حَتَّى تَوَقَّدْتُ * جُذَا الْوَجْدِ فَاسْتَسْقَيْتُهُ يُطْفِئُ الْجَمْرًا
عَلَى أَنْ دَمَعَ الْعَيْنَ فَضْلٌ حُشَّاشَةٌ تُذَابُ فَمَاذَا يَنْفَعُ الدَّمْعُ أَنْ يُجْرَى